سوسيولوجيا الأمثال الشعبية في تشكيل الثقافة الجزائرية

The Sociology of popular proverbs in shaping Algerian culture

تاريخ الاستلام : 2020/01/06 ؛ تاريخ القبول : 2020/11/24

ملخص

الخطابات الأدبية نوع من الممارسات الاجتماعية التي تعبر عن وعي الجماعة، ومن هذه الخطابات ما يمارس بشكل شفوي يتوارث عبر الأجيال ويقاوم التطور بل يؤثر بشكل بارز في بناء ثقافة المجتمع. وهاجس هذه الدراسة هو البحث في علاقة هذه الخطابات الشفوية وبناء الوعي الثقافي والاجتماعي، بمعنى أن البحث سينصب أساسا على نوع واحد من هذه الخطابات وأقصد به الأمثال الشعبية وعلاقتها في بناء الوعي الثقافي الجزائري.

وغرض المداخلة هو دراسة بعض الأمثال الشعبية لمعرفة تأثيرها على الوعي الثقافي للمجتمع والبحث في الأنساق الخفية التي كانت وراء إنتاج هذه الخطابات.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الأمثال الشعبية، المرأة، الوعي الثقافي.

د. نعيمة بولكعيبات

جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر.

Abstract

Literary discourse is a kind of social practice which expresses the consciousness of the group. Some of these speeches is practiced orally and is passed down through generations, resisting development, and affecting the culture of the society. This research focuses mainly on the relationship between the oral discourse and the building of cultural and social awareness, namely the folk proverbs and their relation with the building of Algerian cultural awareness.

The purpose of this intervention is to study some folk proverbs to determine their impact on the cultural awareness of the society and to investigate the hidden patterns behind the production of these speeches.

Keywords: Speech, folk proverbs, women, cultural awareness.

Résumé

Les discours littéraires sont un type de pratique sociale qui exprime la sensibilisation de communauté,de ces discours qui s'exercent spontanément et qui se transmettent d'une génération à une autre et résiste au développement et influence profondément dans la construction de la culturel sociale.

La préoccupation de cette étude est la recherche des relations de ces discours verbales et construire la conscience culturelle et sociale, c'est-à-dire la recherche de consentrersur un seul type de ces discours autrement dit les proverbes populaire et leur relation dans la construction de la conscience culturelle algérienne.

Le but de cette intervention est d'étudier certains proverbes populaire afin de découvrir leur effet sur la conscience culturelle de la société,et en cherchant les motifs cachés qui étaient derrière la production de ces lettres.

Mots clés le discours, proverbes populaires, la femme, la sensibilisation culturelle.

* Corresponding author, e-mail: jjsl.mohamed@gmail.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2020.

مقدمة

تعتبر الأمثال الشعبية من بين أهم الخطابات التي تقوم بنقل المعرفة وتساعد في تشكل الثقافات، فهذه النصوص هي الذاكرة الشعبية التي تساعد على الحفاظ على مقومات ثقافات الأمم والمجتمعات. فقد تشكلت هذه النصوص ضمن سياقات اجتماعية وثقافية واجتماعية متعددة ومتغيرة، وهي في الآن نفسه تعبر عن ثقافة مجتمعاتها وطريقة تشكلها.

ومن أجل معالجة طريقة تشكل هذا الوعي الثقافي الجزائري من خلال تدوال الأمثال الشعبية، أردت الوقوف عند نماذج منها والبحث في هذه النصوص عن المعرفة التي أنتجها التفكير الشعبي في نوع من الخطابات الشعبية التي تجمع بين مختلف الأنساق الاجتماعية والثقافية المشكلة للمجتمع.

I. الثقافة الشعبية ودورها في صناعة الوعي الجماعي

لقد اهتمت الفلسفات المعاصرة بدور الإنسان في بناء الوعي، وكان الاهتمام بالذات الإنسانية من أهم مبادئ فلسفة الحداثة التي جعلت منه مركزية أساسية في صناعة الثقافة وبناء المجتمع. وإذا عدنا إلى أهمية الثقافة فلا يمكن أن نتجاهل التطور الذي عرفته الدراسات الثقافية من فلسفة إلى أخرى ومن توجه إلى آخر.

وكانت للدراسات الثقافية الحديثة أثرا كبيرا في تطور مفهوم الثقافة بكل أنواعها، باعتبارها تعبيرا عن الوعي الجماعي والبناء الاجتماعي، بل إن " تايلور" ربطها بالحضارة واعتبر الثقافة هي المشكل الأول للحضارة وأن المجتمعات تكتسب ثقاتها ومن ثم حضارتها من خلال التكامل الثقافي، فكل المجتمعات تتساوى في المواهب الثقافية ولكنها تتطور وتختلف وفق مراحلها التطورية، يقول:« إن " ثقافة " أو " حضارة"، موضوعة في معناها الإثنولوجي الأكثر اتساعا، هي هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع»[1]، فالثقافة بالنسبة إلى تايلور هي تعبير عن «كلية حياة الإنسان الاجتماعية، وتتميز ببعدها الجماعي. والثقافة، أخيرا، مكتسبة ولا تتأتى، إذا، من الوراثة البيولوجية»[2]، ورغم ما يوجد في هذا الرأي من غموض أو رفض إلا أن مشكلة الثقافة وطريقة اكتسابها غدت من أصعب المواضيع التي تناولها الفكر البشري. فالثقافة وعلى اختلافها تعبير عن وعي بشري، ومن صنع الفكر البشري، وهذا ما جعلها الصورة المثالية لمعرفة الذات التي صنعتها وأيضا اكتسبتها.

إن الثقافة هي تعبير عن صورة الإنسانية فهي « تتصل بروح الشعب وعبقريته، والأمة الثقافية تسبق الأمة السياسية وتدعو إليها. إن الثقافة تبدو على أنها جملة من المنجزات الفنية والفكرية والأخلاقية التي تكون تراث أمة يُعتبر مكتسبا بصورة نهائية، وتؤسس لوحدتها»[3]. وما يجعلها من أهم مكونات البناء الاجتماعي قدرتها على التأثير على المجتمع والفرد، فالثقافة ليست معطى جاهز، أو بضاعة يمكن استبدالها وتغيرها أو موروث يتناقل جيلا بعد جيل وإنما هي «إنتاج تاريخي أي بناء ينخرط في التاريخ، وبتحديد أدق في تاريخ العلاقات بين المجموعات الاجتماعية»[4]. وبذلك فهي إنتاج

جماعي وأيضا هي تعبير عن وعي الجماعة، وهي بذلك تخضع للجماعة وهيمنتها، فهناك ثقافات مهيمنة على ثقافات أخرى، وأحيانا في المجتمع نفسه نجد ثقافة معينة تهيمن على ثقافات أخرى، أو ثقافة جماعة اجتماعية تهيمن على ثقافة الطبقات الاجتماعية الأخرى. ونجد في الدراسات السوسيولوجية الفكرة التي طرحها "ماركس" و"فيبرّ " حول الثقافة المهيمنة، والمقصود بالهيمنة هنا ليست غلبة ثقافة على أخرى، وإنما ثقافة فئة اجتماعية على أخرى، فلا يمكن«لثقافة مهيمنة أن تفرض نفسها، أبدا على ثقافة مهيمن عليها كما تفعل مجموعة أضعف منها، كما لا تستقر الهيمنة الثقافية، تماما ولا بصفة نهائية أبدا. ولذلك عليها أن تكون مصحوبة دائما، بعمل تلقيني لا تكون آثاره أحادية الاتجاه، أبدا ، وهي، أحيانا "آثار ناشزة" متعارضة مع انتصارات المهيمِنين، إذ إن الوقوع تحت طائلة الهيمنة لا يعني الإذعان لها بالضرورة»[5]. ومسألة الثقافة المهيمنة والمهيمن عليها أثارت فكرة الثقافات الشعبية وعلاقتها بالتطور الثقافي، فهل الثقافة الشعبية من الطبقات المهيمنة أو المهيمن عليها؟.

لقد طرحت الدراسات الحداثية وما بعد حداثية فكرة الدراسات المهمشة والدراسات النخبوية، ضمن ما يعرف ثقافة النخبة أو ثقافة المؤسسات الرسمية وثقافة الطبقات المهمشة ومنها الثقافة الشعبية. ويعرف هذا المصطلح اختلافا فكريا في مرجعياته ، بين من يجد في هذه الثقافات «مشتقات من الثقافات المهيمنة، وهذه وحدها هي التي يمكن أن يُعترف بشرعيتها، وهي التي تتناسب، إذا مع الثقافة المركزية، الثقافة المرجعية»[6]، والصورة الثانية تطرح فكرة الثقافات المهمشة وتعتبر الثقافة الشعبية «ثقافات هامشية، فلا تكون، إذا إلا نسخاً رديئة من الثقافة الشرعية التي لا تتميز الأولى منها إلا عبر صيرورة تفقير. إنها ليست إلا تعبيرا عن الاستلاب الاجتماعي الذي يمس الطبقات الشعبية الفاقدة لأية استقلالية. كما أن الاختلافات التي تتعارض فيها الثقافات الشعبية مع الثقافة المرجعية، في هذا المنظور، يتم تحليلها، إذا على أنها حالات نقصان وتحريف وعدم فهم. بتعبير آخر، إن الثقافة " الحقيقية" الوحيدة هي ثقافة النخب الاجتماعية إذ ليست الثقافات الشعبية إلا سقط نتاج غير مكتمل»[7].

الثقافة الشعبية هي «الثقافة" الاعتيادية" للناس الاعتياديين، أي ثقافة تُصنع يوما بيوم، خلال الأنشطة العادية والمتجددة، يوميا، وفي آن معاً»[8]. ولقد وصفها " تيري ايجلتون" بأنها "ثقافة اليسار" التي تعبر عن آمال طبقة الناس البسطاء، هذه الثقافة التي يمكن لها التفوق على الفن السامي، «وتظهر الثقافة الشعبية العادية أكثر دينامية وعاطفية وفاعلية من الثقافات الكلاسيكية الجافة»[9]. وإن كانت تمثل اليسار عند انجلتون فهي عند " برت فلنت" «التقاليد القروية خاصة التي تمكن أوسع نفر من الناس من التعبير عن أنفسهم وعما يحيط بهم، والتي لا ترحب بها البورجوازية في مدرستها عندما يضطرها التصنيع والهجرة من القرى إلى المدن إلى فتح أبوابها شيئا فشيئا في وجه الطبقات الاجتماعية الكبرى»[10]. وفي هذا حصر وتضيق لمفهوم الثقافة الشعبية التي تتجاوز القرى والتقاليد القروية وتأكيد على أن الثقافة الشعبية ترتبط هي تعبير عن طبقة اقل من طبقات المجتمع الأخرى، وهي مجرد ثقافة جاءت مضادة للثقافة الرسمية أو الثقافة الراقية، ثقافة الطبقة العليا . وهذا ما يمنح مفهوم الثقافة الشعبية دلالة ايديولوجية بحتة تجعلها نتيجة وجود صراع طبقي أو ثقافة هامشية جاءت لتصارع ثقافة مركزية في المجتمع.

إن صعوبة الوقوف على مفهوم واحد للثقافة الشعبية لا يدل على صعوبة المصطلح من حيث دلالته اللغوية بل جل الصعوبة في تحديد مدلول واحد لهذه الثقافة يكمن في أن مفهوم الثقافة الشعبية يحمل في طياته توجهات كثيرة وايديولوجيات متعددة قد تصل إلى حد التناقض. ومهمة الثقافة الشعبية يختزل في تقديم عصارة تجارب هذا المجتمع التي تراكمت واختزنت عبر فترات تاريخية متواترة إلى المجتمع والعمل على نشر الوعي وتوجيهه إلى أفكار ومعتقدات سادت هذه المجتمعات.

II. الأمثال الشعبية وتأثيرها على الثقافة الجزائرية

الأمثال الشعبية هي «في كل قوم خلاصة تجاربهم ومحصول خبرتهم، وهي أقوال تدل على إصابة المحز وتطبيق المفصل. هذا من ناحية المعنى، أما من ناحية المبنى فإن المثل المسرود يتميز عن غيره من الكلام بالإيجاز ولطف الكتابة وجمال البلاغة. والأمثال ضرب من التعبير عما تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية بعيدة البعد كله عن الوهم والخيال»[11]، إن المثل الشعبي هو خلاصة ما توصل إليه الوعي الإنساني في كل المجتمعات، فهو الذاكرة المشتركة أو المخزون الثقافي الذي يقبع في منطقة اللاوعي الجماعية لكل أفراد الجماعة الواحدة، تعبر عن تجارب اجتمعت وتراكمت عبر مراحل تاريخية متعددة لينطق بها الوعي الجماعي ويعبر بها عن واقع وأحداث وظواهر تشترك فيها الجماعة الواحدة.

فهو في جوهره « حكمة صافية نقية انبثقت من فطرة الإنسان بشكل عام »[12]، إنه تعبير عن عمق التجربة الإنسانية بكل تنوعاتها وبمختلف مستوياتها الثقافية والاجتماعية . فالأمثال الشعبية هي تعبير عن فلسفة كل مجتمع بل هي «روح الشعب وما يعيش في قاراته من إحساسات واهتمامات روحية جمعية»[13]، انطلقت بداية من أفواه فردية لتنتشر عبر التواتر والاستعمال وتعبر عن فلسفة المجتمع اتجاه مواضيع مشتركة، وتستعمل نتيجة الحاجة النفسية إليها. فليس بالضرورة أن يكون مستعمل هذه الأمثال يمتلك ثقافة تعليمة أو معرفية بسيطة وإنما الحاجة النفسية هي التي تستدعي استعمالها، فهي ورغم اختصارها تعبر عن الحاجة التي تقتضيها وتلخص تجارب عديدة. فهي خطابات لغوية تجمع بين خصائص اللغة الشفوية المتكلم بها في المجتمع والوعي الجمعي لهذه المجتمعات وتعبر عن الهوية الثقافية لما تجمعه من خصائص اللغة الشفوية والتجربة الجماعية ، فـــ **المثل الشعبي = لهجة + تجربة.**

ومن خلال هذه الأمثال الشعبية «يقوم الناس بتعريف أنفسهم وهم لا يشعرون، ويعرفهم الآخرون بوصفهم أعضاءً في هذه اللغة أو تلك أو هذا الخطاب الاجتماعي أو ذاك»[14]، فهذه الخطابات تعمل على نشر إيديولوجيات سائدة في المجتمع وليست بالضرورة صحيحة أو مقبولة اجتماعيا أو أخلاقيا، ولكنها أفكار انطلقت وانتشرت عبر التداول المستمر والأهداف المشتركة، وتطرح في مواقف معينة من أجل تحقيق أهداف واضحة، فنجد المثل الواحد يوظف بأساليب مختلفة وفي مواقف متغيرة بتغير الأهداف والمواقف. ولكن خطورة هذه الأمثال يتجسد في كونها خطابات سريعة الانتشار والتداول بين أفراد المجتمع، كما أنها تخضع لقبول جماهيري ونفسي يجعل من قائلها أو سامعها يتأثر بها وكأنها مسلمات نطق بها العقل وصدقها القلب. لهذا فهذه الخطابات من أهم الخطابات الأدبية التي تصنع الثقافة الشعبية وأيضا الثقافة الوطنية والقومية.

III. موقف العقل الثقافي الجزائري من المرأة من خلال الموروث الشعبي

لقد ساهمت الأمثال الشعبية في تكوين العقل الثقافي الجزائري وتشكيل وعي باطني يسكن المنظومة الاجتماعية يعبر بطريقة غير شعورية عن معتقدات المجتمع والأعراف والتقاليد التي نشأ عليها رغم تناقضها مع القيم الدينية والأخلاقية لهذا المجتمع. وقد قمت بجمع مجموعة من الأمثال الشعبية الجزائرية من مختلف ربوع الوطن التي تعبر عن وعي هذا المجتمع اتجاه المرأة. والغريب في الأمر أن هذه الأمثال تستعمل من الجنسين: الرجل والمرأة وهي تعبير عن الصورة التي يحملها الوعي الجماعي للمرأة الذي لا يكاد يخرج عن صورة واحدة اجتمعت كلها في كلمة واحدة " **إن كيدهن عظيم**"، وتم تعميم هذه الصورة على المرأة بصورة مطلقة.

لقد عبرت الأمثال الشعبية الجزائرية عن الوعي الذكوري الذي يسكن الشعور الجمعي للمجتمع، وهو وعي يمتد في أصوله إلى التفكير البشري عموما؛ تفضيل الرجل على المرأة واعتبار المرأة الشيطان الذي أخرج الرجل من الجنة. إنه وعي يمتد إلى الأصول القديمة وانتقل إلى اللاشعور البشري عبر مجموعة من الخطابات كونت« الوعي الذكوري المتحيز ضد المرأة في التاريخ البشري»[15]. ولم تخص هذه الأمثال لفئة

خاصة من النساء أو المرأة في مرحلة معينة بل تحدثت هن المرأة في صورتها المطلقة، فنجدها تناولت ولادة البنت، وأيضا قبل زواجها وبعد زواجها في علاقتها مع زوجها.

1) المرأة / البنت في الأمثال الشعبية

إن هذه الأمثال المنتجة ضد المرأة تعبر في جوهره عن فكر عنصري يسود المجتمع ضد المرأة، فعندما نجد خطابا يتداول في المجتمعات يعبر عن خطورة وجود البنات في المنازل، هو عودة إلى الجاهلية الأولى التي مثلها القران الكريم في قوله تعالى«**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ {58} يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ» {59} (سورة النحل، الآية 57)**، فقد حافظ هذا المجتمع على هذه الأفكار الجاهلية وتداولها في قوالب متنوعة، فنجد ترسخ فكرة ولادة البنت يماثل وجود كارثة في البيوت، ودائما ترد مفاهيم الأفعى للدلالة على خطورة البنت، ومن بين الأمثال الشعبية الدالة على ذلك:

"زوج احناش في غار ولا زوج بنات في دار"

" لي عندو لبنات عندو لفعات"

" صوت حية ولا صوت بنية"

" هم لبنات للممات"

" البنت يا تسترها يا تقبرها "

" دلل ابنك يغنيك، ودلل بنتك تخزيك"

"بنتك لا تعلمها حروف ولا تسكنها غروف"

"البنت إما رجلها وإما قبرها"

ففي هذه الأمثال تترسخ فكرة وجود البنت وولادتها تجلب الخزي والعار في العائلة والحل في اللاشعور الثقافي إما الزواج أو الموت، فالبنت تعني العار أو الزواج، وهناك حل آخر ارتضته الثقافة الشعبية للبنت هو الموت. فلقد عرف تاريخ البشرية هذه المعتقدات، فمنذ القدم لم يكن الذكر مثل الأنثى، كما ورد على لسان زوجة عمران، لقوله تعالى: **« فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ»(سورة آل عمران، الآية 36)**.

ورفض الإسلام هذه الأفكار وحاربها في العديد من الآيات والسور وبين فضاعة هذه المعتقدات ، يقول تعالى:« **وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ(9) » (سورة التكوير، الآية 9)**. إلا أن هذه الأمثال أثبتت حضور هذه الأفكار واستمراريتها في ثقافة المجتمع، فالعادات والتقاليد رغم ما تحمله من أخطاء إلى أنها لها سلطة لا تقاوم، فلا الدين ولا الأخلاق والقيم ولا التطور استطاع القضاء على هذه الأفكار أو هذه الخطابات الثقافية الخاطئة.

1) المرأة / البنت قبل الزواج

لم تتوقف الأمثال الشعبية عن وصف المرأة، وإن كانت تتشاءم من ولادتها، فهي أيضا تبرز أخطار البنت الجميلة، وتحدد شروط الزواج الذي يتخلص في حسن الأخلاق، فنجد أمثالا تحذر من هذا الجمال:

" ما يعجبك نوار الدفلى في الواد كيف عامل ضلايل وما يعجبك زين الطفلة حتى تشوف الفعايل".

وإن كان معيار الجمال لا يعترف به كثيرا في الأمثال الشعبية، ففي بعض الأحيان أيضا يتم تحقير البنت وتجريدها من كل أوصاف الجمال أو الأخلاق، وذلك لتتماشى مع سياقات وأهداف المستعمل لها، فمثلا نجد: **"لا زين لا خلوق لا ما يتباع في السوق"**

"راح لبر النسا وجاب عزوجة مكمشة"

"الحنة حرشاء والحناية عمشاء والعروسة طرشاء"

ففي هذه الأمثال ما يجلب القمع النفسي والرفض المعنوي للمرأة، فهي لا تأبه بنفسية هذه المرأة أو بطموحها وأحلامها في كونها تكمل جنس الرجل، فهي شقيقة الرجل، فالمثل الشعبي باعتباره«منظومة معرفية وحلقة فكرية وموقفية تستخلص من الفعل الاجتماعي وتتواصل معه وتحمل مفاهيمه التي تنال منها ومن إنسانيتها وكرامتها»[16]، فالمهم من هذه المنظومة كيف تنشر أهمية زواج البنت فهي خلقت للزواج والولادة وما ينبغي لها أن تبقى دون زوج:

فـــــ " الراجل هيبة ولو عشيبة"

"خوذ بنت عمك ولو كان بارت ، وخوذ الطريق ولو كان دارت"

" أذي بنت عمك ألا ما صلحتش برمة تصلح كسكاس"

"هاك عولتها وهنيني منها"

1) المرأة في صورتها المطلقة

إن الحديث عن هذه التقابلات والثنائيات: (رجل / امرأة) بصورتها البيولوجية: (ذكر/أنثى) يخلق صراعا فكريا وباطنيا بين الرجل والمرأة، امتد هذا الصراع إلى مستوى الخطابات الثقافية المنتشرة والمتداولة ثقافيا واجتماعيا، فالوعي الاجتماعي يحكم على المرأة قبل أن تولد، لأنها محكوم عليها في التفكير الثقافي وفي الوعي الباطني الذي يمجد الذكر وينبذ الأنثى، فليس من الضرورة أن تعرف المرأة أو تحاول اكتشاف حقيقتها فهي : الماكرة، المخادعة، الشيطان ، الأفعى، إنها المرأة الرمز لكل منبوذ ولكل مكروه، وكل فعل شيطاني. ونجد هذا متداولا في ثقافتنا وفي تاريخنا المدون أيضا فقد ورد عند ابن الجوزي أن« حسن بن صالح قال: سمعت أن الشيطان قال للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به، فلا أخطئ وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي»[17].

ومثلت جل الأمثال الشعبية هذه الصورة النمطية السلبية للمرأة الشيطان المترسخة في المعتقدات السائدة في هذه المجتمعات الذكورية التي لا تزال تعيش التخلف الفكري رغم ما تشهده من تطور معرفي، وما تطالب به من خطابات التحرر والتقدم، ومما لا شك فيه أن هذه الصورة قد تم توارثها من خلال هذه الأمثال التي تعمل على نشر الوعي الذكوري وتحقير المرأة. فعندما نجد أمثالا تجعل من قوة المرأة أسطورة تصل حدّ تغلبها على الطبيعة البشرية والحقائق الكوني فمعنى ذلك أن هذه المرأة هي فعلا حليفة الشيطان التي تمتلك قدرات ميتافيزيقية ، فنجد مثلا:

"يتحزموا باللّفاع ويتخللّو بالعقارب".

" أتولّد البغلة وأتقمط الجمل".

وفي أغلبية هذه الأمثال توصف المرأة بالأفعى والحية، لقوة مكرها ودهائها في القضاء على فريستها، وهذا ماترسخ في اللاشعور الجمعي للثقافة الشعبية فالحية «رمز لحواء المثيرة للشهوة المدغدغة للعواطف المحفزة للغرائز»[18].إن انتشار هذه الأفكار لا يمكن أن يكون من محل الصدفة بل إن «الأساطير والخرافات تعد بؤرة محورية، لعبت دورا رئيسا في إنتاج العقلية الذكورية»[19]، فالمرأة لها شكل يختلف عن طبيعتها البشرية، هذا الشكل الذي أنتجته الثقافة الاجتماعية« عبر تاريخ الحضارات الإنسانية والميثولوجيات القديمة والتصورات الدينية حقلا لتناقضات بارزة ، فهو مجال للقوة الميتافيزيقية، للسلطة المرتبطة بسر الأمومة والخصوبة وحمل الحياة الجديدة، وهو أيضا مجال للشر، مصدر دل للسحر والضرر، حامل للحياة والموت في آن»[20]، فنجد ما يدل على قوتها الخارقة وقدرتها على فعل الشر المطلق، فهي سيدة الغدر والمكر بلا منازع:

" الرجال تهد الجبال والنسا تهد الرجال"

" ما في الشتا ريح دافي وما في النسا عهد وافي"

" كان سبع كي أزوج أرجع ضبع".

فهذه الأمثال الشعبية هي نتاج ما ترسب في الوعي الجمعي الاجتماعي اتجاه دونية المرأة، وإذا عدنا إلى الثقافات القديمة فقد« حملت الأسطورة التي هي إدلوجة الرجولة، تيمات الوعي الذكوري المبكر عن المرأة، مما شكل منبت البنية النمطية الأولى التي شاعت في الخرافات الشعبية التي حلت محل الأسطورة في وصفها للمرأة بالدونية ونمطية الشر وضرورة اضطهادها في المجتمع، بل يغدو جمالها نقمة على الرجال لا نعمة، حيث نجد لدى الثقافة الشعبية الأسطورية أفكارا مسبقة تجرد المرأة من أبعادها الإنسانية، وتحيلها إلى النموذج الأسطوري الشرير، مقابل رسم صورة طيبة إيجابية خيرة بطولية(أو ضحية) للرجل، فعندما تطرح الثقافة الشعبية موضوعة الذكر والأنثى فإنها لا تطرحها على أساس الاختلافات الطبيعية بين الجنسين، حيث تؤدي العلاقة بينهما إلى استمرار النوع الإنساني، ولكنها تطرحها على أساس الدونية والفوقية، فالمرأة تحتل مرتبة تحتية باستمرار بالنسبة للرجل»[21]، والمفارقة الغريبة في هذه الأمثال أنها تمثل أيضا قوة المرأة وارتباط صلاح البيت بصلاحها، وقدرتها العجيبة على تنظيم الحياة، فنجد أمثالا تدل على أهمية المرأة ومكانتها وقدراتها، فكثيرا ما تستعمل : "عيشة خير من عياش"

كما أن " لمرا عمارة ولو تكون حمارة"

ونجد أيضا: " حديث النساء أيونّس ويعلم لفهامة"

إن وجود هذه الأمثال في الثقافة الشعبية تعبر عن الوعي السائد فيها، ولكن الخطر الحقيقي من هذه الأمثال يكمن في مواصلة تلقينها للأجيال القادمة والعمل بها على أنها مسلمات حقيقية وتجارب واقعية أنتجها الفكر الاجتماعي. فعملية طرح هذه الأفكار في حقيقتها مشروع إيديولوجي يحاول تغريب جوهر المرأة وأهميتها في البناء الاجتماعي، وزرع نوع من الفتن الداخلية بين أهم ثنائيات المجتمع (الرجل / المرأة). فهي إشارة على الأنساق المضمرة التي تحرك الوعي الجمعي للمتجمع اتجاه مسألة المرأة وعلاقتها بالرجل والمجتمع بصفة عامة، فهذه الأمثال تناولت صورة المرأة/ البنت وعلاقتها مع إخوتها، ووالدها(الرجل)، وصورة الزوجة في علاقتها مع زوجها، ورغم ما تحمله من تناقض إلى أنها تقبل كما هي دون مراجعة أو تفسير، فهذه الأمثال نفسها تصف المرأة على أنها من صنيع الرجل وترتبط شخصيتها بشخصيته فـــ"الفرس على فارسها والمرأة على راجلها".

كما أنه لا يمكن تجاهل دور مؤرخي الثقافة العربية التي تتميز بصفتها الذكورية في التأثير على الوعي السائد اتجاه المرأة «فقد حرصوا على وضع المرأة ومنجزاتها وآثارها في منطقة الظل، والسبب في ذلك هو أن حركة الجمع والتدوين التي بدأت في العصر الأموي وبلغت أوجها في العصر العباسي قد تمت على أيدي رجال آمنوا بعقلية مجتمع كان قد حكم على المرأة بالوأد المعنوي بعد أن تم له عزلها عن الحياة العامة في سراديب الحريم»[22]. ومن الضروري التصدي لهذه النماذج وهذه الأفكار التي تروج لافتراضات خطيرة وصراعات وهمية بين الرجل والمرأة وجدت في الثقافات القديمة ولا تزال تتواتر بين الأجيال في محاولة لنشرها والتأثير بها على وعي المجتمع وبناء

الثقافة. وبذلك علاقتها بالثقافة الوطنية والقومية وهي افكار خطيرة على المجتمع وعلى بناء الوعي الثقافي.

الخاتمة

لقد كان هدف هذه الدراسة هو الوقوف على أهمية الأمثال الشعبية ودورها الجوهري والخفي في بناء الوعي الثقافي والاجتماعي، وما تسليط الضوء على الأمثال الشعبية التي تتحدث عن المرأة إلا صورة واحدة من صور عديدة نجدها في هذه الأمثال. وفي ذلك محاولة لإعادة قراءة هذه الأمثال ومحاولة الوصول إلى الأنساق المضمرة التي تخفيها وتمررها إلى الوعي الاجتماعي. ففي هذه الدراسة قمت بتجميع 54 مثالا عن المرأة في الثقافة الشعبية الجزائرية، فكانت الأمثال التي تتحامل على المرأة وتصفها بأنها نواة الشر في المجتمع ووصف مثالبها وإغراقها بتهم الخيانة والغدر والمكر هي 48 مثالا أي بنسبة 88٪، وهذا دليل على الإيديولوجيا المنتشرة في ثقافة هذا المجتمع اتجاه المرأة، وما تعيشه من حالة استلاب معنوية في مجتمعها.

الأمثال الشعبية هي خطابات مؤدلجة تؤدي دورها في أحسن صورة وعلى أكمل وجه في صمت وهدوء تام ولكنها تصل إلى المتلقي بأبلغ طريقة ممكنة فهي تتغلغل إلى نفسية المتلقي وتقبع في أعماقه وتعمل على إدخال القيم والثقافة التي تنسجم مع عادات وتقاليد المجتمع وتؤدي الدور المنوط بها حتى تغدو هذه الأفكار نواة الفرد ومن ذلك المحتمع. إنها خطابات تساهم في بناء المعرفة الثقافية ولهذا يجب الوقوف عندها وإعادة قراءتها في ضوء ما تخفيه هذه الأمثال من أنساق مضمرة تسكن في اللاوعي الجمعي للمجتمع الجزائري.

ملحق بمجموعة الأمثال الشعبية حول المرأة

المثل الشعبي	معناه
1. ما في الشتا ريح دافي وما في النسا عهد وافي	الغدر
2. لا تغرك شمس الشتا ولا تغرك ضحكة النسا	الغدر
3. حديث النساء أيونّس ويعلم لفهامة	الحكمة
4. يتحزموا باللّفاع ويتخللّو بالعقارب	الخداع والمكر
5. بهت النساء بهتين من بهتهم جيت هارب	المكر
6. أمرا أتعيّيـك وأمرا أتعليـك	المكر
7. لا في النسا عهد وافي ولا عقد صافي	الغدر
8. النسا كيدهم ما يتنسى	الغدر
9. بالك تنسى وتامن النسا	الغدر

10. أنتوما النسا هدرتكم ما تنحصى ومرقتكم ما تنحسى	الغدر
11. أتولّد البغلة وأتقمط الجمل	الغدر
12. خافت من القمرة وهربت في الظلمة	المكر
13. النسا إذا تحزّمت والخيل إذا تلجمت	الغدر
14. الي عينو في العذاب يخالط النسا والكلاب	نقص القعل
15. ألي يحب الهراج يكثر النسا والدجاج	نقص القعل
16. كل بليـّة سببها أولّيـّة	المكر
17. إذا حلفوا فيك الرجال بات راقد وإذا حلفوا فيك النسا بات قاعد	الغداع والمكر
18. ما يغلب الرجال الفحولة غير النسا أقللات الأصل، وما يغلب قللات الأصل غير صفاح القبور.	المكر
19. إذا حبوك النسا بات أعلى الكسا وإذا كرهوك النسا بات أعلى العصا	المكر
20. الرجال تهد الجبال والنسا تهد الرجال	المكر
21. ألمرا تغلبها المرا والراجل تغلبه المرا	المكر
22. أتلاقو عليا ثلاثة ما فيهم أحنانة، الفقر والدهر والمرا النقراشة	المكر
23. كان سبع كي أزوج أرجع ضبع	المكر
24. ما تضرب مرتك حتى أتكتّفها	المكر والخداع
25. أضرب النسا بالنسا ماشي بالعصا	لا يقدر على المرأة إلا بنات جنسها
26. اضرب لمرا بالمرا يا ولد لمرا	لا يقدر على المرأة إلا بنات جنسها
27. أضرب ألغنم بالعصا وأضرب الرجالة بالنسا	الغدر والمكر

28.ما يخسّر بين الرجال غير النسا والدراهم	الغدر والمكر
29.مزين النساء بضحكات لو كان فيها يدوموا الحوت يعوم بالماء وهوما بلا ماء يعوموا	المكر
30.سوق النساء سوق مطيار يا داخلو رد بالك أيوريولك من الربح قنطار ويديولك راس مالك	المكر
31.شاور مرتك وخالف رايها	نقص العقل
32.كية النسا ما تتنسى	المكر
33.معرفة الرجال كنوز ومعرفة النسا نجاسة	احتقار المرأة
34.الحنة حرشاء والحناية عمشاء والعروسة طرشاء	احتقار المرأة
35.ما يعجبك نوار الدفلى في الواد كيف عامل ضلايل وما يعجبك زين الطفلة حتى تشوف الفعايل	عدم الاغترار بالمظهر والجمال
36.زوج احناش في غار ولا زوج بنات في دار	احتقار المرأة
37.قال المجذوب: كيد النساء كيدين، وكيدهم ياحزوني، راكبة على ظهر السبع، وتقول لحدى ياكلوني	الغدر والمكر
38.الفرس على فارسها والمرأة على راجلها	ارتباط طبيعة المرأة بقوة الرجل
39.الرجالة جاحو والنساء اقباحو	صعوبة
40.أربع نسا والقربة يابسة	الأنانية
41.ما تاخذ راي المرا، ما تبع الحمار من وراء	نقص العقل
42.ما ندّيك ياخيري ما نخلّيك لغيري	الأنانية
43.العايبة تحوّس البلدان والعورة أتخيّط الكتان والطرشة أتجيب لخبر منين كان	الغدر والكذب

44. عيشة خير من عياش	قوة المرأة
45. عشة البنات ما عمرت ما خلات	عدم فائدة البنت قبل الزواج
46. لعندو لبنات عندو لفعات	نبد البنات
47. صوت حية ولا صوت بنية	نبد البنات
48. البنت يا تسترها يا تقبرها	عدم فائدة البنت قبل الزواج
49. دلل ابنك يغنيك، ودلل بنتك تخزيك	نبد البنات
50. بنتك لا تعلمها حروف ولا تسكنها غروف	نبد البنات
51. البنت إما رجلها وإما قبرها	نبد البنات
52. هم لبنات للممات	نبد البنات
53. "إذا تفاهمت العجوز والكنة ،حتى إبليس يدخل للجنة"	علاقة الزوجة بأم زوجها
54. "راح لبر النسا وجاب عزوجة مكمشة"	احتقار للمرأة

قائمة المصادر والمراجع:

1. **برت فلنت، الثقافة الشعبية وثقافة النخبة، تر: محمد عياط، مجلة عيون المقالات، العدد 12، فبراير 1989، المغرب.**
2. **تيري ايجلتون، الثقافة الشعبية: سؤال القيمة،مجلة الملتقى، تر: عبد الجليل الأزدي، العدد 9 – 10 ، أكتوبر 2002 ، المغرب.**
3. **حسين مناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2008.**
4. **خديجة صبار، المرأة بين الميثولوجيا والحداثة، دار إفريقيا للشرق للطباعة والنشر، المغرب، 1999.**
5. **دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط: 01، 2007.**
6. **عبد الباقي يوسف، رسالة الثقافة الشعبية، مجلة المعرفة، العدد 603، ديسمبر 2013، سوريا.**
7. **كلير كرامش، اللغة والثقافة، تر: أحمد الشيمي، مر: عبد الودود العمراني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ط: 01، 2010.**

8. نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، دت.

(1)- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط: 1، 2007، ص. 31.
(2)- دنيس كوش، المرجع السابق، ص. 31.
(3)- المرجع نفسه، ص. 25.
(4)- المرجع نفسه، ص. 119.
(5)- المرجع نفسه ، ص. 121.
(6)- دنيس كوش، المرجع السابق، ص. 123.
(7)- المرجع نفسه، ص. 123.
(8)- المرجع نفسه، ص. 125.
(9)- تيري ايجلتون، الثقافة الشعبية: سؤال القيمة،مجلة الملتقى، تر: عبد الجليل الأزدي، العدد 9 – 10 ، أكتوبر 2002 ، المغرب، ص. 112.
(10)- برت فلنت، الثقافة الشعبية وثقافة النخبة، تر: محمد عياط، مجلة عيون المقالات، العدد 12، فبراير 1989، المغرب، ص. 63 .
(11)- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، دت، ص. 139.
(12)- عبد الباقي يوسف، رسالة الثقافة الشعبية، مجلة المعرفة، العدد 603، ديسمبر 2013، سوريا، ص. 182.
(13)- يسرى العزب، مقالات في الأدب الشعبي، ص. 23.
(14)- كلير كرامش، اللغة والثقافة، تر: أحمد الشيمي، مر: عبد الودود العمراني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ط: 01، 2010، ص. 111.
(15)- حسين مناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2008، ص. 11.
(16)- خديجة صبار، المرأة بين الميثولوجيا والحداثة، دار إفريقيا للشرق للطباعة والنشر، المغرب، 1999، ص. 56.
(17)- ابن الجوزي، تلبيس إبليس، دار ابن خلدون، الإسكندرية، مصر، دط، دت، ص. 29.
(18)- خديجة صبار، المرأة بين الميثولوجيا والحداثة، دار إفريقيا للشرق للطباعة والنشر، المغرب، 1999، ص. 18.
(19)- حسين مناصرة، المرجع السابق، ص. 17.
(20)- المرجع نفسه، ص.39.
(21)- المرجع نفسه، ص.19.
(22)- خديجة صبار، المرجع السابق، ص. 07.